قبل يكون ... وقبل أن يكون

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

ألقت إلى المقادير يوما عبء الحديث عن الشاعر العربى المصرى تميم ابن المعز لدين الله الفاطمى فى معرض الحديث جملة عن مصر الشاعرة فى العصر الفاطمى. والأمير تميم هذا شاعر له وزنه ، ظلمته الأيام حينا ، ثم حاولت إنصافه بأخرة من الزمان ، فظهر ديوانه الضخم سنة ١٩٥٧ عن دار الكتب المصرية محققاً بجهود عالمين جليلين هما أستاذنا المرحوم أحمد يوسف نجاتى ، وزميلنا فى مجمع اللغة العربية المرحوم الأستاذ محمد على النجار :

وتميم هذا هو الذى يقول عنه ابن الأبار الأديب الشاعر المؤرخ الأندلسى المتوفى سنة ٦٥٨ هـ وصاحب « الحلة السيراء » : (شاعر أهل بيت العبيديين غير منازع ولا مدافع وكان فيهم كابن المعتز فى بنى العباس : غزارة علم ، ومعاناة أدب ، وحسن تشبيه ، وإبداع تخييل ، وكان يقتفى آثاره ويصوغ على مناحيه فى شعره أشعاره) .

ولقد كان من حظى أن أقرأ ديوان تميم بن المعز كله من ألفه إلى يائه بيتاً بيتاً ، فقادتنى الألفة إلى التعرف إلى ملامح مميزة يكاد يتفرد بها الأمير تميم من دون شعراء مصر فى العصر الفاطمى . وإن كان بعضهم حاول أن يشركه فيها . ووجدت لشاعرنا تعابير خاصة لعل فيها من مصر آثاراً عليه بعد أن قدم من المهدية والمنصورية فى تونس سنة ٣٦٢ هـ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره فى صحبة والده المعز لدين الله الفاطمى .

وما أكثر ما كان تميم يمد المقصور ويقصر الممدود فى شعره على هيئة تلفت نظر قارئ شعره ، وما أكثر ما كان يصل همزة القطع ويقطع همزة الوصل كقوله فى مدح والده :

أأحصى أياديه ومن بعضها أنا
أم انعت جدواه ومن بعضها قدرى

وما أكثر ما كان شاعرنا يحذف المشبه الموصوف مع ما يبدو فى ذلك من غرابة كقوله :

تفتر عن كالجمان منتظم
يصافح اللثم بارداً خصرا

ويريد أن يقول : تفتر عن ثغر كالجمان .

وما أكثر ما كان يلجأ شاعرنا تميم إلى

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات مؤتمر الدورة الخامسة والأربعين (جلسة الأربعاء غرة ربيع الآخر سنة ١٣٩٩ هـ ، الموافق ٢٨ من فبراير سنة ١٩٧٩ م) .

لغة « أكلونى البراغيث » فيلحق علامة التثنية والجمع بعامل الفاعل ونائب الفاعل، كالذى صنعه عبد الله بن قيس الرقيات فى مرثيته لمصعب بن الزبير حيث يقول :

تولى قتال المارقين بنفسه
وقد أسلماه مبعد وحميم

كما أنشده ابن عقيل رقم ١٤٣، والأشمونى رقم ٣٥٦، وابن هشام الأنصارى المصرى فى أوضح المسالك رقم ٢٠٩ ، وفى شرحه لشذور الذهب رقم ٨١ . وكالذى صنعه الشاعر أبو فراس الحمدانى فى قوله :

نتج الربيع محاسنا
ألقحنها غرُّ السحائب

بدلا من قوله : ألقحها غر السحائب . وإن كان أبو فراس ممن لا يحتج بشعره على قواعد اللغة ومفرداتها لأنه مولد . وإن كانت هذه اللغة أعنى لغة أكلونى البراغيث هى لغة جماعة من العرب يلحقون علامات التثنية والجمع بالفعل المسند إلى المثنى والجمع كما يلحق جميع العرب علامة التأنيث .

وأظهر ما وجدته من غرائب التعبير عند شاعرنا تميم بن المعتز هو حذف (أن) المصدرية عقب الظرف (قبل) . كقوله من أبيات فى شعر الشكوى، وليس عجيبـاً أن يشكو الأمراء وأبناء الخلفاء من زمان لاتنقطع الشكاة منه لدى غنى أو فقير :

عدانى عن الشكوى إلى الناس أننى
عليل : ومن أشكو إليه عليل
ويمنعنى الشكوى إلى الله علمه
بجملة ما ألقاه قبل أقول

ونستطرد هنا إلى إباء الأمير تميم وكبريائه وعزة نفسه ، فهو يجد أسباب الشكوى ولكن كبرياءه ، لاتسمح له بالإفصاح حتى إلى خالقه ، فالله عالم بكل ما يلقاه فلا حاجة به إلى القول ، والناس كلهم شركاء له فى آفة الضعف البشرى ، فما جدوى الشكوى من عليل إلى عليل ؟

ولقد ألفنا وألف الناس فيما يقرءون ويحفظون ويتحدثون أن يقول القائل (قبل أن أقول) : لا أن يقول : (قبل أقول) بحذف أن المصدرية التى يسبك منها ومن الفعل بعدها مصدر يقع مضافا إليه للظرف : قبل . ويقدر هكذا : قبل القول .

ولقد تكرر حذف أن المصدرية هذه بعد الظرف (قبل) عند شاعرنا تميم . فنجده مثلا فى قصيدة يمدح بها أخاه الخليفة العزيز بالله الفاطمى يقول :

ولست أرضى من الأمور بما
لا أجد المكرمات ترضاها

واسمع فعندى من كل صالحة
ألطف أسرارها وأخفاها
لاأدعى الفضل قبل يشهد لى
به أدانى الدنى وأقصاها

فهو لا يقول كما يقول سائر الناس : لاأدعى الفضل قبل أن يشهد لى، بل يقول : قبل يشهد لى ، فيحذف أن المصدرية التى تألف ورودها فى كثير جداً من منظوم الكلام ومنثوره بعد الظرف الزمانى المكانى : (قبل) .

وإذا تتبعنا « قبل » فى القرآن الكريم وهو أعلى مثل فى الصحة اللغوية وعلو الاستعمال وجدناها إما مضافة أو مقطوعة عن الإضافة لفظاً لا معنى ، أو مقطوعة عن الإضافة لفظا ومعنى .

والمضافة لها أحوال سنتحدث عنها عما قليل . أما المقطوعة عن الأضافة لفظا لامعنى فكقوله تعالى : (لله الأمر من قبل ومن بعد) آية رقم ٤ سورة الروم. وقد قرأها السبعة على الضم ،وقدره ابن يعيش على أن الأصل فى الكلام: من قبل كل شىء ومن بعده . ورأى ابن هشام الأنصارى أن الأنسب للمقام أن يقدر : من قبل الغلب ومن بعده ، تمشياً مع سياق الكلام فى قوله تعالى : «ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض»، فحذف المضاف إليه لفظاً ونوى معناه فاستحق البناء على الضم :

أما المقطوعة عن الإضافة لفظاً ومعنى فاستشهدوا لها من القرآن بقراءة : (لله الأمر من قبل ومن بعد) بالجر والتنوين لقطع النظرعن المضاف إليه لفظا ومعنى . وشاهده من الشعر قول يزيد بن الصعق :

فساغ لى الشراب وكنت قبلا
أكاد أغص بالماء الحميم

وإن كان « العينى » قد نسبه خطأ لعبد الله بن يعرب . فالظرف هنا منون منصوب لأنه قطع عن الإضافة فى اللفظ ، ولم ينو المضاف إليه :

أما « قبل » المضافة فى القرآن الكريم فيدل التتبع على مايأتى : (١) إما مضافة إلى اسم الإشارة «هذا» كقوله تعالى فى سورة هود : (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا) . وقوله فى السورة نفسها : (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) . وقوله تعالى فى سورة مريم : (ياليتنى مت قبل هذا). وقوله فى سورة الواقعة : (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) . (٢) وإما مضافة إلى اسم ذات كقوله تعالى فى سورة الرعد : (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة)أومصدرصريح أومؤول ، فالصريح كقوله تعالى فى سورة النساء :(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) . وقوله فى سورة مريم : (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) أى قبل أن تطلع الشمس وقبل أن تغرب . والمصدر المؤول

يكون من (أن) المصدرية المذكورة وفعلها الذى يلى (قبل) على أن يكون المصدر المؤول من أن والفعل مضافا إليه للظرف « قبل » . ولقد جاء هذا الاستعمال فى القرآن كله على تسعة وعشرين موضعاً . كقوله تعالى فى سورة النساء : (من قبل أن نطمس وجوها) ، وقوله فى سورة الأعراف : (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم)، وقوله فى سورة إبراهيم: (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال)، وقوله فى سورة المجادلة : (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا) وتأويل هذه المصادر هو على الولاء : من قبل طمس الوجوه ، آمنتم به قبل الأذن لكم ، من قبل إتيان يوم ، فصيام شهرين متتابعين من قبل التماس (٣) وإما أن تكون « قبل » مضافة إلى الضمائر الآتية : ضمير المفرد المخاطب كقوله تعالى: فى سورة البقرة (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) . ضمير المخاطبين كقوله تعالى فى سورة البقرة : (اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم) . ضمير المتكلمين كقوله تعالى فى البقرة: (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) . ضمير الغائب المفرد ، كقوله فى سورة البقرة :(وإن كنتم من قبله لمن الضالين) . ضمير الغائبة المفردة ، كقوله فى سورة الرعد : (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم) . ضمير الغائبين كقوله تعالى فى سورة يوسف : (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم). ضمير ياء المتكلم كقوله تعالى فى سورة آل عمران: (قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات) .

ومن تتبعنا للمواضع التسعة والعشرين فى القرآن التى جاء فيها المصدر مؤولا من أن المصدرية والفعل بعد الظرف (قبل) نرى أن القرآن جرى على ذكر أن لاحذفها أو إضمارها، كما جاء فى شعر تميم بن المعز الفاطمى . فالقرآن جرى على عبارة (قبل أن يكون) لا عبارة : (قبل يكون) .

ومعلوم أن (أن) المصدرية كما جاء فى شرح شذور الذهب ، وفى المغنى لابن هشام، وفى حاشية الصبان ، وفى المقرب لابن عصفور تضمر وجوباً فى مواطن ، كما تضمر جوازاً فى مواطن أخرى نص عليها النحاة. فبعد اللام التعليلية، ولام العاقبة التى تسمى أيضاً لام الصيرورة أو لام المآل ، واللام الزائدة الواقعة بعد فعل متعد يجوز إظهار أن المصدرية وإضمارها . وقد ورد الإضمار والإظهار فى قوله تعالى فى سورة الأنعام : (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وقوله فى سورة الزمر . (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) . أما لام الجحود المسبوقة بكون منفى فيجب إضمار أن بعدها ، كقوله تعالى فى آل عمران : (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) ، وكذلك تضمر أن المصدرية وجوباً

بعد : كى التعليلية التى بمنزلة اللام ،ولايجوز التصريح بأن بعدها إلا فى الشعر لضرورة، على حين يجيز الكوفيون إظهارها عموماً فى الشعر والنثر .أما حروف العطف الأربعة: أو ،الواو ، الفاء ،وثم ، فمنها مالا يجوز معه إظهار أن وهو الحرف : أو . ومنها ما لايجب معه الإضمار وهو حرف : ثم ،والباقى وهو الفاء والواو يجوز معهما إظهار أن وإضمارها .

وإذا حذفت أن المصدرية فى غير المواضع المنصوص عليها فى كتب النحو بطل عملها فلا تنصب المضارع ، فإذا نصبته كان ذلك شاذاً ولا يقبل منه إلا مانقله العدول كما جاء فى حاشية الصبان على شرح الأشمونى . ومن ذلك قراءة بعضهم : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) سورة الأنبياء. بنصب الفعل يدمغ . ومنه قول طرفة بن العبد :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فقد نصب الفعل: أحضر ، على الرغم من إضمار أن التى لا يُعملها الكثيرون لأن العامل الناصب ضعيف كالجار والجازم ، والعامل الضعيف لايعمل إلا إذا كان مذكوراً فى اللفظ فإذا حذف لم يبق له عمل . ومن ذلك ماجاء فى المثل : (خذ اللص قبل يأخذك) بالنصب ، أو قبل يأخذك بالرفع على رأى البصريين

ويبدو أن الإمام الشافعى قد تأثر بلهجة بعض قبائل العرب من حيث حذف أن المصدرية قبل الفعل المضارع ، وبعد الظرف : (قبل) . فتصادفنا فى كتابه الرسالة وهو مشهور موثق أمثال هذه العبارات: عليه يتعلم الصلاة ، بدلا من أن عليه أن يتعلم الصلاة . وقبل تكمل الصلاة . بدلا من قبل أن تكمل ، قبل يحل عليك بدلا من: قبل أن يحل عليك. (انظر صفحات ٤٩ ، ٢٦٥ ، ٥٨٢ من الرسالة بتحقيق المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر) .

ويعد استعمال الإمام الشافعى لأمثال هذه اللهجات العربية توثيقاً لها ،ومساندة لصحتها. ومن هنا صح للشيخ أحمد محمد شاكر أن يقول فى هذا الصدد :(لغته — يعنى الإمام الشافعى — حجة ، لفصاحته وعلمه بالعربية .. وأصل الربيع من كتاب الرسالة أصل صحيح ثابت غاية فى الدقة والصحة . فما وجدناه مما شذ عن القواعد المعروفة أو كان على لغة من لغات العرب لم نحمله على الخطأ ، بل جعلناه شاهداً لما استعمل فيه) .

ومن هنا أيضاً نرى الأستاذ المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة يتحدث فى كتابه عن (الإمام الشافعى) قائلا : (ولقد كان مع استحفاظه لأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وحفظه لكتاب الله تعالى قد اتجه إلى التفصح فى العربية ، ليبعد كل البعد عن العجمة وعدواها

التى أخذت تغزو اللسان العربى بسبب الاختلاط بالأعاجم فى المدائن والأمصار . وقد خرج فى سبيل هذا إلى البادية ولزم هذيلا) .

ويقول الإمام الشافعى نفسه عن نفسه كما جاء فى (مناقب الشافعى) للفخر الرازى : (إنى خرجت من مكة فلازمت هذيلا بالبادية ، أتعلم كلامها ، وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، أرحل برحيلهم ، وأنزل بنزولهم ؛ فلما رحلت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار) . وإذا ما احتجنا إلى شاهد آخر غير الشافعى على الشافعى ، فإنا نرى الأصمعى اللغوى الراوية المعروف يقول : (صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس) يعنى الإمام الشافعى . وقد التقط المرحوم الأستاذ مصطفى منير أدهم — والد الزميل د . إبراهيم الدمرداش — هذه الشهادة فرواها فى محاضرته عن (رحلة الإمام الشافعى إلى مصر) التى ألقاها فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٨ بدار الجمعية الجغرافية بشارع قصر العينى ، وطبعها فى مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٣٠ وأسعدنى بأنه أهداها إلى يومئذ ، كما أسعدنى نجله الزميل الدكتور إبراهيم بإهدائى — من أشهر — نسخة أخرى من طبعة جديدة لها .

ومن الأمثلة على حذف أن المصدرية التى استشهد بها ابن هشام فى مغنى اللبيب ، والصبان فى الحاشية ، وابن عقيل فى الشرح ، والإمام أحمد بن عبد النور المالقى المتوفى سنة ٧٠٢ هـ ، وابن عصفور فى المقرب قول بعضهم : (مره يحفرها) أى أن يحفرها ، وقول بعضهم : (لابد من يتتبعها) . وإن كان صاحب المقرب قد عد هذا من نادر الكلام .

فالإمام الشافعى قد أفاد من أمثال هذه اللهجات واستعمالها فى كتاباته وأدارها على ماكان يحرره بمصر ، وخاصة أنه دخل مصر سنة ١٩٩ هـ . ومات ودفن بها سنة ٢٠٤هـ .

وقد كان رضى الله عنه قد كتب كتابه (الرسالة) لعبد الرحمن بن مهدى قبل أن يجىء إلى مصر ، ولكنه أعاد كتابتها بهذا البلد الطيب من جديد .

ويبدو أن هذه اللهجات التى ارتضاها الإمام الشافعى وأكثر استعمالها فى كتبه ورسائله قد لقيت من علماء مصر وأدبائها ومؤرخيها وشعرائها ترحيباً وقبولا . فنجد الحسن بن زولاق مؤرخ مصر فى القرن الرابع الهجرى يلجأ فى كتابه المشهور : (أخبار سيبويه المصرى) — وهو غير سيبويه النحوى — إلى حذف أن المصدرية فى المواضع التى لم ينص فيها النحاة واللغويون على حذف . كقوله : (فما قدرنا نقابله) أى أن نقابله . وقوله (فعقد على أبيه لا يعمل الصرف) أى أن لا يعمل الصرف . وقوله : (فقال : اذهب عافاك الله لا أراك ، على تأتى بعدها) يريد : على أن تأتى بعدها . وقوله : (لاشتهيت تصفع نفسك) يريد : لاشتهيت

أن تصفع . . . وقوله : (احتاج أحفظ) يريد أحتاج أن أحفظ . وقوله : (فمنها أنه طلب منى حماراً يركبه فتهاربت منه خوف يطوف عليه) يريد خوف أن يطوف عليه . وقوله : (على شريطة تعطينى من دينى خمسمائة دينار) يريد : على شريطة أن تعطينى . وقوله : (ياسيدى : أخاف لايقبل منى) بدلا من : أخاف أن لا يقبل منى . (انظر صفحات ١٦ — ٢٥ — ٢٩ — ٣٩ — ٤٨ — ٥٠ — ٥٥ — ٥٦) من كتاب أخبار سيبويه المصرى. ونجد الكاتب المؤرخ أبامحمد عبد الله البلوى — وهو مصرى يرجع بنسبه إلى قبيلة بلى بالحجاز وكان معاصراً للدولة الطولونية . . نجده فى كتابه (سيرة أحمد بن طولون) الذى حققه المرحوم محمد كرد على. يميل إلى حذف أن المصدرية فيقول : (أريد أخاطب الأمير) بدلا من : أريد أن أخاطب الأمير .

ونجد الشاعر الشامى المشهور ابن حيوس من رجال القرن الخامس الهجرى يحذف أن المصدرية بعد الفعل : أراد . كقوله من قصيدة يمدح بها أمير الجيوش :

أراد يرينا الله جاهك عنده
ومن منك أولى بالمحبة والزلفى

ويبدو أن العوام فى مصر والشام والعراق وجدوا فى حذف أن المصدرية استئناساً بمجيزى الحذف فى اللغة المكتوبة ، فنرى عند شاعر زجال عراقى اسمه ابن جابر البغدادى من رجال القرن السابع الهجرى استعماله لأن المضمرة بعد (لابد) فى قوله نقلا عن الجزء الثانى من فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى :

لابد تظهر بين الناس
قلندرى محلوق الرأس
تلبس عوض دا الكتان
وحلتك من صوف خرفان
أو دلق أو تصبح عريان

وتدل وثائق البردى — المكتشفة فى مصر والتى نشرها العلامة أدولف جروهمان فى مصر سنة ١٩٣٤ ، سنة ١٩٥٢ — على أن حذف أن المصدرية قبل المضارع فى غير مواطن الحذف المعروفة كان ظاهرة سائدة فى الكتابات العربية على أوراق البردى ، سواء أكانت تلك الكتابات مدونة بالحروف العربية أم بحروف قبطية ، وسواء أكانت مكتوبة بعبارة عامية فيها بعض الفصيح ، أو بعبارة فصيحة مشوبة بالعامية . ومن ذلك ماجاء فى وثيقة كتبت فى القرن الرابع الهجرى وفيها هذه العبارة : (فكيف تسمح نفوسهم يسلفوا شىء ويأخذوه وقت الغلة) بدلا من : (فكيف تسمح نفوسهم أن يسلفوا) .

ويظهر أن هذا الحذف وجد قبولا عند العامة لسهولته ولإيجاز الكلام فيه :

وليس عجيباً أن يهتم العامة فى مصر بحذف أن المصدرية قبل مضارعها وأن يرتضوها

لهم لغة سهلة فى الكتابة وفى الخطاب ، ولكن العجيب أن يهتم الشعراء بهذه اللهجة أو اللغة التى اختارها الإمام الشافعى وآثرها على اللغة العالية فى إثبات أن . وقد رأينا الشاعر تميم ابن المعز فى القرن الرابع الهجرى يرضى عن هذه اللهجة ويكررها فى مواطن من شعره حيث كان له عنها مندوحة . ونجد شاعراً مصريا آخر من الأشراف الطالبيين هو الشريف العقيلى الذى اختلف فى وجوده بين القرنين الرابع والخامس قد ارتضى هذه اللهجة كما ارتضاها تميم بن المعز من قبل ، فنجد فى ديوانه الذى نشره زميلنا المرحوم الدكتور زكى المحاسنى فى مصر قوله :

فكن لداعى التقى مجيبا
من قبل تدعى فلا تجيب

بدلا من قوله : من قبل أن تدعى .

ونجده فى موطن آخر يقول فى خمرية له :

فاسبق الشمس قبل تبدو بشمس
سرها فى غمامة الكأس جهر

بدلا من قوله : فاسبق الشمس قبل أن تبدو .

ونجده فى موطن ثالث يقول فى إحدى خمرياته النيلية :

فاشرب على مذهب أزهاره
من ذهب فى فضة يجرى
قبل يريك الصبح بلوره
يلمع فى فيروزج الفجر

بدلا من قوله : قبل أن يريك الصبح بلوره .

ولا يقف حذف أن المصدرية فى مصر قبل الفعل أو قبل الفعل وبعد الظرف (قبل) عند شعراء القرن الخامس الهجرى : فنجد الظاهرة تمتد عند شاعر مصرى يمنى من رجال القرن السادس هو ظافر الحداد الأسكندرى المتوفى سنة ٥٢٩ هـ كما جاء فى أكثر المصادر ، وسنة ٥٦٣ هـ كما ذكر ابن تغرى بردى الأتابكى فى وفيات سنة ٥٦٣ . فنجد له من قصيدة فى حالة النسيان التى كانت تعترى أبا عامر قوله : من قبل يبسم أو تنهل عيناه . . بدلا من أن يقول : من قبل أن يبسم أو تنهل عياه .

على أن بعض شعراء الشام قد حلا لهم أن يجاروا بعض شعراء مصر فى هذه الظاهرة التى أشاعها الإمام الشافعى باستعمالها فى نثره منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ، فجاء الشعراء بعد ذلك وارتضوا استعمالها فى غير ضرورة على توالى العصور . ويصادفنا من هؤلاء الشعراء الشاعر ابن حيوس الدمشقى المتوفى سنة ٤٧٣ هـ والذى نشر ديوانه المغفور له الأستاذ خليل مردم بك رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٧١ هـ (سنة ١٩٥١م) . فنرى هذا الشاعر يقول من قصيدة فى مدح أمير الجيوش :

لازلت تحكم فى الأنام مخولا
ملكاً يزول الدهر قبل يزول

بدلا من أن يقول : يزول الدهر قبل أن يزول . وليس معنى اختيار ابن حيوس لهذه اللغة أنه غضّ نظره عن إثبات (أن) بعد الظرف (قبل) ، فإنه كان يراوح بين الاستعمالين ، كقوله من قصيدة عينية يمدح بها أمير الجيوش :

ريعت له الأملاك قبل رضاعه
وتزعزعت من قبل أن يترعرعا

ولعل زملاءنا الأفاضل هنا من أهل المغرب الكرام يسرهم أن يعلموا أن هناك شاعرين يتصحف اسمهما على الناس باسم (ابن حيوس) الدمشقى من أهل المشرق العربى . أحدهما مغربى من فاس ، والآخر أندلسى من أشبيلية . أما الأول فهو : عبد الله بن محمد ابن حبوس بالباء التحتية الموحدة المخففة ، وقد نبه إلى التصحيف فيه ابن خلكان . والناس يصحفونه إلى ابن حيُّوس بالمثناة المشددة . وهو غلط كما نبه عليه صاحب الوفيات (انظر وفيات الأعيان ج٢) .

أما الثانى الأندلسى فقد ورد اسمه فى معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسى بعد ترجمته لابن حيوس الدمشقى . وهو من غرائب التصحيفات ، وصوابه : ابن حنون بنونين ، أولاهما مخففة كما جاء فى « المغرب » لابن سعيد المغربى ، وقد تنبه إلى ذلك الدكتور عبد العزيز الإهوانى ، ونبه عليه المرحوم خليل مردم بك .

ولقد وجدنا الشعراء فى العصور المتأخرة يتخففون كثيراً من حذف (أن) المصدرية بعد الظرف (قبل) . ولعلهم وجدوا فى الحذف شيئاً لم يألفوه فى الاستعمال الغالب ، فآثروا أن يجروا على اللغة الشائعة الغالبة . ولكنا نصادف عند الشاعر المهجرى الكبير (إيليا أبو ماضى) — وهو يمثل تيارات الشعر الجديدة فى المهجر الأمريكى الشمالى — نزوعه بعض الحين إلى اللغة التى ارتضاها الإمام الشافعى فى حذف (أن) بعد الظرف (قبل)، كقوله من قصيدة رائعة فى أثر الغربة فى بلاد المهجر الشمالى :

قالت : أينسى النازحون بلادهم
ماهاج حزن القلب غير سؤالها
الأرض سوريا أحب ربوعها
عندى ولبنان أعز جبالها
والناس أكرمهم على عشيرها
روحى الفداء لرهطها ولآلها
تشتاق عينى قبل يغمضها الردى
لو أنها اكتحلت ولو برمالها ؟

كما أن الشاعر المهجرى الصديق زكى قنصل من شعراء العروبة فى المهجر الجنوبى بالأرجنتين ينفرد من بين الشعراء العرب فى أمريكا اللاتينية بحذف (أن) المصدرية

عقب الظرف (قبل) . كقوله من قصيدة عنوانها : ليلة حب

ماكنت أعلم قبل يجمعنا الهوى
أن النعيم على مدى خطوات

ولعله متأثر هنا بإيليا أبى ماضى الذى يعجب به : ومتأثر كذلك بالنماذج المعدودة لهذا الاستعمال الذى لايعدمه المطالع على ندرة نادرة فى دواوين الشعر العربى على مسيرة القرون .

وبعد : فهذه متابعة لاستعمال التعبير : (قبل يكون) بدلا من (قبل أن يكون) وهى ظاهرة كان يألفها الكتاب والشعراء والمتحدثون حتى القرن السادس الهجرى ، ولكن لم يكن لها ظهور ولا رواج بعد ذلك حتى عصرنا الحديث .

محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع